طلقة (٢٤)

صورة قديمة مع عبد الناصر

ماذا تحمل المظاريف المغلقة !

إنها الحرب مرة أخرى... ولكنها هذه المرة لا تدور على أرض سيناء بالملابس العسكرية، أن أبواقها تصيح من لشبونة عاصمة البرتغال وتحديداً من مقر السفارة المصرية هناك وعلى وجه الدقة أكثر من داخل مكتب السفير سعد الشاذلي، وعلى مقربة من حفيديه هشام وكريم وقد ذهبا اليه في عطلة الصيف، وكان قد قرر وانتهى الأمر، اتصل به السفير الكويتي الذي أخبره بقرب وصوله إلى البرتغال، واتصل به شقيق زوجته الذي أعلن عن زيارة عائلية قريبة، كل هذا يتم، وفي يوم ١٩ يونيو ١٩٧٨ كان سائق السفارة يحمل عدة مظاريف مغلقة إلى عدة جهات فيها ورقة الخلاص النهائية والقاطعة بينه وبين السادات، كانت المظاريف المغلقة تحمل بياناً من الشاذلي تم توزيعه على وكالات الأنباء والصحف وسنلاحظ أن الرجل استشعر المناخ الثوري في البرتغال والذي يتفق مع قراره وطبيعته وقد قال في بيانه الخطير: لقد اتضح أن نظام السادات ليس أفضل من نظام سالازار أو نظام كايتانو الذي أسقطته الثورة البرتغالية في ٢٥ ابريل ١٩٧٤ كما أنه ليس أفضل من نظام فرانكو الذي سقط في اسبانيا بعد موته في نوفمبر ١٩٧٤ أن إجراءات الانتخابات وخلق بعض المؤسسات الدستورية في بلد ما، لا يعني بحال من الأحوال أن الديمقراطية قد تحققت في هذا البلد.

إن القوانين التي أصدرها السادات مؤخراً لهي أشد قسوة من كل ما أصدره سالازار طوال حكمه من قوانين ظالمة وتحت شعار الوحدة الوطنية والسلام الاجتماعي، لقد كان سالازار يزج بخصومه السياسيين في السجون بموجب قوانين وضعها هو بنفسه وصادق عليها أعضاء البرلمان الذين أتي هو بهم بالتزوير، السادات يكرر المشهد بحذافيره ويستطيع أن يسوق معارضيه إلى السجون أو حتى إلى حبل المشنقة أنه يعتبر كل من ينتقد زيارته للقدس تهديداً للوحدة الوطنية.

ولو أن هناك ديمقراطية حقيقية في مصر لما اختار أبناء مصر هذه السياسة الخارجية الخاطئة التي يدفعنا اليها السادات وقد أدت إلى أن أصبحت إسرائيل أشد تعنتاً في مطالبها، وتدهورت القدرة القتالية للقوات المسلحة لتصل إلى ٦٠٪

مما كانت عليه قبل حرب أكتوبر، واهتز التضامن العربي وبدأ يتفكك ولو أن هناك ديمقراطية في مصر لما تجرأ السادات على نشر مذكراته بينما هو لا يزال في موقعه كرئيس للجمهورية لقد تعودنا أن نقرأ مذكرات كبار السياسيين والعسكريين ولكن بعد اعتزالهم الخدمة أما أن يكتب أحدهم مذكراته وهو لا يزال يشغل منصبه فان هذا لم يحدث قط في بلد في العالم...ان طريق الديمقراطية في مصر هو طريق صعب ولكنه الطريق الوحيد الذي يمكن من خلاله أن تصل مصر إلى مستقبل أفضل، عاشت مصر وعاشت الديمقراطية.

هذا الجزء الأخير من البيان توقفت أمامه طويلاً بعد إعلان انتخاب محمد مرسي كأول رئيس مدني منتخب ، مع منافسه الفريق أحمد شفيق المحسوب على نظام مبارك...تذكرت بيان الشاذلي وكأنه قد كتبه أيضاً في عصر مبارك وفي شكل حلم كان يراوده هو والملايين غيره، ويراه الغالبية صعب المنال لكنه تحقق في مصر بعد ثورة ٢٥ يناير وقد رحل الشاذلي ليلة انتصارها وخلع مبارك وكأنه قد اطمئن إلى ذلك وكان شديد الثقة أن الديمقراطية مقبلة لا محالة وكما تصورها قبل ٤٠ عاماً تقريباً، وهناك في لشبونة، هناك يلعب العسكري بأدوات وأسلحة السياسة على أعلى مستوى ويخاطب شعب البرتغال بما يعرفه، ولكن البيان القنبلة سرعان ما كان صداه وردود أفعاله مدوية بعد ساعات قليلة من اعلانه في جميع أنحاء العالم، سارعت وكالات الأنباء والقنوات الفضائية للاتصال بالسفير المتمرد وأجرت محطة BBC البريطانية حواراً مطولاً معه، وجرت عدة اتصالات مع مجموعة من السفراء العرب في لشبونة يعلنون تضامنهم الكامل مع الشاذلي ويعرضون استضافته في بلادهم، وعرض صدام حسين نائب الرئيس العراقي وقتها أن يستضيفه، وفي مصر نشرت الصحف يوم ٢٠ يونيو قراراً من وزارة الخارجية بالاستغناء عن خدمات سعد الشاذلي لأن الوزارة علمت أنه على اتصال بالقذافي وأنه وعده بمنصب كبير في الجيش وراتب يوازي أضعاف راتبه كسفير عدة مرات،وقتها أخفى الشاذلي وجهته وطلب تأشيرة سياحية إلى اسبانيا وسافرت معه مجموعة تأمين جزائرية وعراقية إلى مدريد ومن هناك أخذ الطائرة إلى الجزائر، حيث

قوبل بحب وتقدير غير متوقعين وعش فترة من أجمل سنوات عمره.

وتحكي السيدة زوجته كيف كانت العائلات تتسابق لزيارة الشاذلي في قصره الكبير وقد وفروا جميع أسباب الراحة ولكنه رفض معاملته كلاجئ سياسي، واعتمد على دخله من كتابة المقالات فهو شديد الحساسية في مثل هذه الأمور مهما كانت درجة ترحيب القيادة الجزائرية به وكان أحفاده يذهبون اليه في أجازاتهم الدراسية ولكنه المنفي وان كانت الجنة ولابد من الوطن ولو طال الأمد.

وكثيراً ما كان الرئيس هواري بومدين يلتقى به وكذلك كبار رجال الدولة واعتبرهم المصريون الذين يعملون في الجزائر بالتدريس وجه الخصوص سفيراً لهم يعرضون عليه مشاكلهم ويحاول حلها بكل الطرق، وكانوا قد شددوا الحراسة عليه خوفاً من اغتياله عن طريق السادات ورجاله ولكن حرية الحركة داخل الجزائر ومنها واليها كانت مكفولة له،أما سر اختيار الجزائر دون غيرها فيرجع إلى ثورية الجزائر ونظامها ،الذي ينسجم إلى حد كبير مع أفكاره بعكس حزب البعث العراقي الذي يختلف معه، وقد ارتبط الشاذلي بصداقة وطيدة مع الرئيس الجزائري هواري بومدين عندما كان الشاذلي أميناً مساعداً عسكرياً لجامعة الدول العربية، وقد طلب بعد تعيينه رئيساً للأركان أن يطلب بعض الأسلحة من الدول العربية وكان رد السادات أن الجزائر والمغرب على وجه الخصوص لن يتعاونا مع مصر، لكن الشاذلي تصدى لهذه المهمة وسافر في فبراير ١٩٧٢ إلى الجزائر والتقى بالرئيس بومدين ووعده بأن تقدم الجزائر جميع المساعدات العسكرية المطلوبة بشرط أن تكون هناك نية صادقة للحرب.

وفي سبتمبر ١٩٧٣ قبل الحرب بأسابيع قليلة سافر الشاذلي باسم مستعار إلى الجزائر والتقى بالرئيس الجزائري وأخبره بميعاد الحرب وتباحثا بشأن السلاح وخطة الحرب ووعد بومدين أن يتصل بالسادات للاتفاق معه على التفاصيل وعندما اندلعت الحرب قدمت الجزائر سرب ميغ ٢١ وسرب سوخوي ١٧ وسرب ميغ ١٧ ولواء مدرع

واحتلت المركز الثاني في ترتيب الدول العربية الداعمة لمصر وسورية في حرب أكتوبر، بينما احتلت العراق المركز الأول، وجاءت ليبيا ثالثاً يليها على الترتيب: الأردن، المغرب، السعودية، السودان، الكويت، تونس.

وكان من الممكن للتعاون العربي أن يحقق أفضل صورة مما ظهر به لكن التأخير في ارسال الأسلحة أحياناً ونوعيتها لم تكن تتناسب مع خطط المعركة ومواجهة أسلحة إسرائيل المتقدمة جداً، لكن حسن النوايا هنا يكفي ويستحق الشكر لأن هذا الحشد العربي لم يحدث منذ انشاء دولة إسرائيل.

ويكتب الشاذلي وثيقة وتوصية عسكرية بالغة الأهمية للعرب يقترح فيها بناء نظام دفاع جوي يستطيع الدفاع عن القوات المسلحة ويوفر لها الحماية قبل بدء العمليات الحربية مع العدو.

وتكون أسبقية رفع الكفاءة للجيوش العربية للقوات الجوية والدفاع الجوي ثم القوات المدرعة، ونصح الأمين العام المساعد العسكري لجامعة الدول العربية في هذا الوقت، بشراء السلاح وفق احتياجات كل دولة، وأن تكون الأسلحة حديثة ويتم التدريب عليها أولاً بأول، مع الاهتمام بالانتاج الحربي.

١٣ عاماً

١٣ عاماً قضاها الشاذلي بالجزائر ضيفاً عزيزاً كريماً ومحارباً صلباً ومعارضاً للسادات يتحرك بين الدول التي عرفت بالصمود والتصدي كرجل سياسي وطني، واستثمر وقته على أفضل ما يكون.

نشر مذكرات عن أكتوبر ثم اتبعها بكتاب «٤ سنوات في السلك الدبلوماسي»، وكتاب (الخيار العربي الاستراتيجي) وكان كتابه الرابع (الحملة الصليبية الثامنة)، وعندما دخلت الجزائر في نفق الحرب الأهلية بعد انقلاب القادة العسكريين على نتائج الانتخابات البرلمانية التي جاءت بالإسلاميين إلى الحكم، وعلى أثرهم تم عزل الشاذلي

بن جديد رئيس الجمهورية وتحديد إقامته وتم إعلان الأحكام العرفية وبدأ الجيش الجزائري في الإجهاز على رموز وقادة جبهة الإنقاذ وإثارة الاضطرابات في مختلف أنحاء البلاد وتم تدبير عدة مذابح وإلصاق تهمة فعلها بالإسلاميين لكن الرجل الذي انتصر دائماً وأبداً للديمقراطية رفض أن ينقاد لأعداء الديمقراطية.

وقد استعان العسكر في الجزائر ببطل سابق شارك في ثورة التحرير هو محمد بو ضياف لتولي الحكم بدلاً من الشاذلي بن جديد بدأت مضايقات بعض المسؤولين للشاذلي بعد اغتيال محمد بو ضياف وبدأ البعض يخطط للاستيلاء على القصر الذي يسكنه بمجرد أن علموا بنواياه في العودة إلى مصر.

ويذكر الكاتب مصطفى عبيد على لسان أحد الصحافيين الجزائريين التقى الشاذلي بالخرطوم بعد سنوات حبسه في مصر وسأله أن كانت في نفسه غضة مما فعله بعض الجزائريين فقال ضاحكاً للصحافي:

- يا أخي لا يمكن أن أخذ الشعب الجزائري كله بذنب قلة قليلة، ويكفي أن هذا الشعب قد احتضني بكل الحب سنوات طويلة.

وعاد الشاذلي إلى مصر وهناك من أوحى اليه بان الحكم الذي صدر بسجنه عام ١٩٨٣ بسبب نشر الأسرار الحربية في مذكراته وإفشاء معلومات تخص أمن الدولة، وأبلغ أسرته بعودته، وكانت قد سبقته إلى مصر، ونزلت الطائرة به إلى مطار القاهرة وتأكدوا أنه كان بين ركابها ولكنه لم يغادر المطار، ولم يصل بيته.

وبدأت المخاوف تتسرب إلى قلب زوجته وابنته وعائلته وأدركوا أن المسألة لم تعد تحتمل السكوت، واتصلت الزوجة بقصر الرئاسة وطلبت ابلاغ مبارك بأنها سوف تعتصم أمام القصر اذا لم يتم الاعلان عما جرى له وأين هو، وقامت شهد'ن ابنته الكبرى بابلاغ الاذاعة البريطانية باختطاف والدها، وفي اليوم التالي تم ابلاغهم بأن الفريق محتجز في التحريات العسكرية وأن سيارة خاصة دخلت إلى حرم المطار واصطحبته من بين الركاب مقبوضاً عليه، ويجب ترحيله فوراً إلى السجن الحربي!!.

خارج السياق : (حقائق للتاريخ)

يرتبط تاريخ الشعب اليهود كما هو وارد في أسفار موسي الخمسة بمصر والمصريين منذ البداية، اذ يبدأ التاريخ بالعبودية في مصر ثم الخروج منها، وهي اللحظة التي تحول اليهود فيها إلى شعب، لهذا أصبحت مصر رمزاً للعبودية والمنفى وتحول المصريون رمزاً للأغيار ، وهذا التاريخ المقدس لا علاقة له بالتاريخ الحقيقي، فالعلاقة بين الإمبراطورية المصرية القديمة والمملكة العبرانية لم تكن دوماً سيئة، كما أنها لم تكن طيبة طوال الوقت، فإذا نظرنا إلى الجانب الايجابي في العلاقة نجد أن العبرانيين كثيراً ما انضموا للقوات المصرية كمرتزقة، وقبل سقوط الهيكل على يد تيتوس الروماني كانت توجد مستوطنة يهودية في جزيرة الفنتين بأسوان، يقوم سكانها من الجنود المرتزقة بحماية حدود مصر الجنوبية، كما كان اليهود يهاجرون بأعداد كبيرة إلى مصر،

والتاريخ اليهودي المقدس يذكر زواج الملك سليمان من أميرة فرعونية (وان كان هذا الحدث الأخير يؤخذ كمؤشر على مدى تدهور سلطة ملوك مصر الفراعنة، أما من الناحية السلبية فنجد أن كثيراً من ملوك مصر القديمة قاموا باحتلال فلسطين لحماية حدود مصر الشرقية أو ليفرضوا حكومة تابعة لهم، كما أن الأقلية اليهودية في مصر تحالفت مع الغزاة الهكسوس، من كل هذا نستنتج أن علاقة المصريين باليهود كانت علاقة عادية تتسم بالصداقة أحياناً وبالعداوة أحياناً أخرى، ولكن التاريخ المتعين لا علاقة له بالتاريخ المقدس الذي يدرسه الطالب اليهودي (ثم الطالب الإسرائيلي في المدرسة التلمودية أو في دروسه الدينية، وهو التاريخ الذي تنظر أوروبا إلى مصر من خلاله، وهو الأساس الفكري لكثير من الأفكار الغربية العنصرية عن مصر والعرب، وحقوق اليهود المطلقة في أرض الميعاد).

قبل وأثناء حرب السادس من أكتوبر ١٩٧٣ كان يحكم إسرائيل جيلاً كاملاً

منذ عام ١٩٤٨، وكان هذا الجيل هو الواجهة الديمقراطية للحكم الديكتاتوري للمؤسسة العسكرية الإسرائيلية التي كانت تحكم إسرائيل، وكان هذا الجيل دور في خداع الرأي العام الأميركي، حتى أعلنت بعض الأقلام العالمية أكثر من مرة أن إسرائيل هي الدولة الوحيدة في الشرق الأوسط التي تمارس الديمقراطية.

obeikandl.com